ثمامة بن أشرس

للأستاذ علي السباعي
المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميري (١) أحد ناشري الاعتزال ، ورأس طائفة نسبت إليه تسمى الثمامية ، ولد بالبصرة ؛ وليس بذي بال أن يعين المؤرخون في أية محلة من محلاتها ولد ، ولا في أي يوم وجد ، ما داموا قد أحاطونا علما بعصره ومن أدرك ، وأوقفونا على آثاره وما ترك . وقد حدثونا أنه بعد نشأته في البصرة ، مدرسة العلم والأدب ، ومهد اللغة والاعتزال في القرنين الأول والثاني ؛ صعد منها إلى بغداد ، موطن الغنى والجاه ، ومباءة العلماء والأدباء ، ومصدر الشهرة وذيوع الصيت ؛ فالتقى فيها ببشر بن المعتمر رئيس المعتزلين في بغداد ، فأخذ عنه كما كان أخذ عن أبي الهذيل العلاف في البصرة . ومن زملائه في الطلب ببغداد ، موسى المزدار ، وأحمد بن أبي دؤاد ، والجعفرين : جعفر ابن مبشر ، وجعفر بن حرب؛ ويظهر أن من زملائه في البصرة الجاحظ. واستنباط بعضهم أنه من شيوخ الجاحظ لأنه يقول : حدثني ثمامة ، أخبرني ثمامة ؛ أو لأنه نقل عنه كثيرا في كتابيه البيان والتبيين والحيوان - ليس بقوي مدعم بالبراهين ، لأن العلماء المعاصرين ينقل بعضهم عن بعض من غير أن يكون

(١) نسبة إلى قبيلة بني نمير المشهورة؛ ومن شعرائها الراعي ، وأبو حية النميري ؛ وقد هجاها جرير بقصيدته الدامغة ، ولكن هجاءه لم يذهب بشرفها ولم يحط من مكانتها ؛ فقد كانت إحدى جمرات العرب ؛ والجمرة : القبيلة تصبر لقراع القبائل لا تحالف أحداً ولا تنضم إلى أحد اعتزازاً بقوتها؛ وإلى ذلك يشير أبو حية :

لنا جمرات ليس في الأرض مثلها كرام وقد جربن كل التجارب
نمير وعبس يتقي نفيانها وضبة قوم بأسهم غير كاذب

والنفيان : معناه رشاش السحاب ، شبه به من يتطرف من الجيش

أحدهم أستاذا للآخر ، ولأن ثمامة مشهور بالاعتزال . وشيخ الجاحظ فى ذلك النظّام .

وحين اشتهر أمره فى بغداد ، وعرفته مجالس العلم والمناظرة مجادلا ظاهر الحجة ، قوى البديهة ، مسكت الجواب ، ذا حكايات ظريفة ، ونوادر طريفة - رحبت به مجالس الوزراء ، وفتحت له أبواب الخلفاء ، فاختلف إليهم وأصبح من الندامى والسمار ، بل فى منزلة المستفتى المستشار ، أنس به الرشيد وقربه إليه ، ثم غضب عليه لزندقته وظهور كذبه فى أمر أحمد بن عيسى بن زيد (١) فأمر بحبسه - كما يقول الطبرى - فى سنة ١٨٦ وأسلمه إلى سجان يدعى سلاما الأبرش وأشار إليه بالتضييق عليه وتعذيبه فسجنه — كما يعترف ثمامة — فى بيت ضيق خرب مملوء بأجحار الهوام والجرذان ، وليس به من المنافذ إلا ما يدس منه الطعام ، وقد استعطف الرشيد بأبيات فعفا عنه وقربه وجعله نديمه ، لما رأى من نضج عقله ، وحسن أدبه ، وحلاوة حديثه .

واتصل بالمأمون بعد الرشيد فحظى بمكانة لا تسامى ، وجعله منه بمنزلة الاستاذ الخبير ، والناصح المستشار ، وقد عرض عليه الوزارة مرتين فأباها ، لا زهداً فى المنصب وقناعة بما يملك ، وإنما توقياً لأخطار الوزارة ، وبعداً عن غيرها ، وسلامة من تقلب الخلفاء وتغيرهم ؛ وقد أعرب هو نفسه عن ذلك فقال : لما قتل الفضل ابن سهل بعث إلى المأمون — وكنت لا أنصرف من عنده إلا إلى منزلى ، ثم يأتينى رسوله فى جوف الليل فأذهب إليه — وكان قد أهلنى لمكان الفضل فى الوزارة ، فلما رأيته قد ألح على فى ذلك تعاللت عليه وقلت : يا أمير المؤمنين ، إنى لا أقوم بذلك ، وإنى لأضن بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزول

(١) هو من نسل الحسين بن على ، كان خارجا على الخلفاء العباسيين متعباً لهم ، ومات فى زمن المتوكل بعد إسحاق الموصلى فى سنة ٢٣٥ هـ ، وقد قال المتوكل لما بلغه نعيه ، وكان مغنما لوفاة إسحاق : تكافأت الحالتان ، وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق فالحمد لله على ذلك .

عنده ، فإني لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ، ولا تدوم منزلته . ، فقال المأمون : أشر يا ثمامة على برجل صالح لما أريد فأشار عليه بأحمد ابن أبي خالد الأحول... فأنت ترى من نص عبارته أنه كان راغباً عن الوزارة ، لازاهداً كما كان يفعل نظراؤه من المعتزلين الزاهدين أمثال عمرو بن عبيد وواصل والجعفرين ، الذين كانوا يرفضون ولاية الأعمال والقضاء ، بل يأبون مقابلة الخلفاء ، ويقبضون أيديهم عن أخذ العطاء ـ وإنما لأنه شديد الحذر ، بصير بالعواقب ، مقدرما ينوب صاحب السلطان من خطر ؛ وكيف لا يقدر ذلك وقد رأى وسمع مالاقاه الوزراء في هذه الدولة ، بل جرب هو نفسه تقريبه ثم إبعاده ، وإجلاله ثم إهانته وسجنه ، وقد ظل ثمامة أثيراً عند المأمون ، محبوّاً بالعطاء ، مقدماً في مجالس العلم والمناظرة ، حتى مات كما قال ابن شاكر في كتابه المخطوط عيون التواريخ سنة ٢١٣ هـ .

معتقده :

كان ثمامة من القدرية الذين يجحدون القدر أو ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء ، وقد أراد بعض متكلميهم أن ينفي هذه التسمية عنهم ، متعللا بأنهم ينفون القدر ولا يثبتونه ، ومن يثبته أولى بهذه التسمية ؛ ولكنه في هذا التعليل مموه يلبس الباطل ثوب الحق ، لأنهم ينكرون القدر لله ويثبتونه لأنفسهم ، فهم قدريون يثبتون القدر لهم ، وتسميتهم بهذا مولدة ، إذ لم تعرف العرب القدرية بهذا المعنى ؛ ولثمامة طائفة نسبت إليه ذكرها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، وذكر خلاصة مذهبه الذي انفرد به عن أصحابه فحصره في :

(١) أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها

(٢) أن الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والبهائم وأطفال المسلمين يصيرون تراباً يوم القيامة .

(٣) أن الاستطاعة هي السلامة وصحة الجوارح وخلوها من الآفات وهي موجودة قبل الفعل

(٤) أن المعرفة متولدة من النظر ، فهي كسائر الأفعال المتولدة لا فاعل لها .

(٥) أن المعارف كلها ضرورية . ومن لم يضطر إلى معرفة الله فهو معذور ، مسخر للعباد كالحيوان .

(٦) أن العالم فعل الله بطباعه

وبالتأمل والاطلاع على آراء المعتزلة نجد أن الأفعال المتولدة فى مذهب كثير منهم لا فاعل لها ، غير أن ثمامة توسع وأدخل فيها المعرفة وحكم بأنها متولدة من النظر ، وليس لك فيها إلا توجيه الإرادة . أى أنها ضرورية ، وذلك رأى الجاحظ وطائفته أيضاً ، ويترتب على القول بهذا أن آراء الإنسان وعقائده ليست مكتسبة ، بل هى مفروضة عليه فرضاً ، وأنها نتيجة لازمة لتكوين عقله وما يعرض من الآراء ، فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله يضطر إلى عدم الاستحسان وليس فى قدرته أن يستحسن ، ومن أسلم عن نظر فإسلامه غير مكتسب ، ومن كفر فكفره غير مكتسب ، أى لا دخل له فى كفره أو إيمانه ، وأن الأضرار التى تحدث غير مباشرة للفاعل لا عقاب عليها ولا مسئولية فيها ؛ فإذا أشعل إنسان عوداً فأحرق بيتاً وتولد عن الإحراق موت أشخاص - وعن موتهم أضرار لا يسأل من أشعل عن هذه الأضرار ، لأنه قد يكون ميتاً والميت لا يمكن نسبة شىء إليه ، ولو تأملوا فى ربط المسببات بأسبابها ، وإسناد الحوادث إلى أصولها ، لصح عندهم أن المتولدات راجعة إلى الفاعل الأول بتسلسلها عما قبلها .

وبقراءة كتاب الانتصار لابن الخياط يعلم أن مذهب ثمامة فى الكفار والمشركين الخ ، وعقيدته فى أن العالم فعل الله بطباعه - مدسوس عليه ؛ فقد قال ابن الخياط فى ص ١٧٢ :

« وأما اليهود والنصارى والزنادقة فكفار عنده مشركون غامدون للمعصية والكفر ، والكفار عنده فى النار خالدون ، وإنما قال ثمامة : إن من لم يعرف فهو معذور عند الله وهو ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا زنديقاً إذا كان جاهلا ، ولكنه مع قوله هذا يحكم على جميع من أظهر الكفر أنه كافر فى حكم الإسلام »

وقال فى الرد على أن العالم فعل الله بطباعه فى ص ٢٢ ، ٢٣ :

« ويله من حكى هذا القول عن ثمامة ! أو ليست كتب ثمامة معروفة وقوله

مشهوراً ؟ وهل المطبوع عند ثمامة إلا الأجسام المعتملة المحدثة ؟ فأما القديم الذى ليس بجسم فسبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا ، وشيء آخر . وهو أن المطبوع على أفعاله عند أصحاب فعل الطباع هو الذى لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كالنار التى لا يكون منها إلا التسخين ، والثلج الذى لا يكون منه إلا التبريد ؛ وأما من تكون منه الأشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها ،

وبدهى أن من فى الكون وما فيه مختلف جد الاختلاف فى أجناسه وأنواعه حجومه ومقاديره ، ألوانه وأشكاله ، حركاته وسكناته ، فلا يمكن صدوره مطبوعاً ؛ وباطل أن يكون موجده أوجده بطباعه كما تقول ابن الراوندى وأشرك غيره معه كذباً ليكسب آراءه الوجاهة والاعتبار .

ومن رد ابن الخياط على ابن الراوندى يعلم ما فى كتاب الشهرستانى من التساهل فى النقل وتحامله عليه فى وصفه بأنه « كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس » كيف والخلفاء كانوا يجلونه ويحترمونه ؟

مناظراته :

كان ثمامة قويا فى الجدل ، بارعا فى دحض الحجج وإسكات المناظرين ، يأخذ الطريق عليهم أحيانا فلا يدع لهم مسلكا من حسن ما استقصى وقسم ، ويسألهم أحياناً حتى إذا استوت حججهم فى أجوبتهم عمد إليها فأسقطها حجة حجة بعد أن أشهدهم على ضعفها ، وقد ناظر وزراء وقضاة وعلماء ومغمورين لا نعرف عن صفاتهم شيئاً ، وتمكن بقاطع براهينه وقوة بيانه ، وقرب منزلته من الخلفاء ، من إفحام المجادلين ؛ ولا تحسبن أنه فاز فى ميدان الجدل دائما ، فسترى أن مجونا أسكته ، وطفلا أخمه ، وفوق كل ذى علم عليم ، وليس بغريب أن يغلب العوام والأطفال والنساء فطاحل العلماء وفلاسفة كباراً إذا كان المعول على البداهة والاعتماد على الذكاء وقوة الملاحظة ؛ وقديما قرأنا فى كتب التاريخ أمثالا عدة توضح ذلك أجلى توضيح ، ونتقل هنا بعض مناظراته لترى كيف كان يفوق فى حواره بالظفر ، أو يرمى بالتهت وقصر النظر .

(١) ناظر يحيى بن أكثم [١] فى خلق الأفعال فقال: ليست تخلو أفعال العباد من أمور: أن تكون كلها من الله ليس للعباد فيها صنع، أو أن يكون بعضها من العباد وبعضها من الله. فإن زعمت أن ليس للعباد فيها صنع نسبت إلى الله كل فعل قبيح وكفرت، وإن زعمت أنها من الله ومن العباد جعلت الخلق شركاء لله فى فعل الفواحش والكفر وكفرت أيضا. وإن زعمت أنها للعباد ليس لله فيها صنع صرت إلى ما أقوله.

(٢) حكى الجاحظ أن بشر بن المعتمر كان فى مجلسه وعنده أصحابه ومعه مجبر يسألهم ويقول: أنتم تحمدون الله على إيمانكم؟ وهم يقولون: نعم. فيقول لهم: فكأنه يحب أن يحمد على ما لم يفعل وقد ذم ذلك فى كتابه. فيقولون له: إنما ذم من أحب أن يحمد على مالم يفعل ممن لم يعن عليه ولم يدع إليه. وهو يشغب عليهم - إذ أقبل ثمامة بن أشرس، فقال بشر للمجبر: قد سألت القوم وأجابوك، وهذا أبو معن فاسأله عن المسئلة. فقال له: هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان قال: بل هو يحمدنى عليه لأنه أمرنى به ففعلته، وأنا أحمده على الأمر به والتقوية عليه والدعاء له. فانقطع المجبر، فقال بشر: شبعت فسهّلت.

(٣) قال ثمامة أنشدنى أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ فقال: من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت. فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه الحق؟ قال: نعم. قلت:

---

(١) هو محمد يحيى بن أكثم التميمى، وقال الشهاب الخفاجى: إنه ابن أكتم بالتاء وجزم بذلك فى شرح الدرة، ولكن الأول هو المشهور. كان قاضياً للرشيد، ثم وزر للمأمون، وكان من بحور العلم لولا دعابة فيه، ومن تلاميذه الترمذى والسراج، وتوفى سنة ٢٤٢ هـ

فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ماقلت هو الحق ، ولكننى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت : وبمَ تزيد حال من افتقر عن حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامى كله ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

(٤) قال رجل لثمامة : إن لى إليك حاجة . قال ثمامة : ولى اليك حاجة . قال : وماهى ؟ قال : لا أذكرها حتى تضمن قضاءها . قال : قد فعلت . قال : ثمامة حاجتى ألا تسألنى هذه الحاجة . قال : رجعت عما أعطيتك . قال ثمامة : لكنى لا أرد ما أخذت الخ

(٥) قال رجل لثمامة : أنت إن شئت قضى فلان حاجتى . فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدريتى هذا كله ؛ إنما قلت : إن شئت فعلت ولم أقل إن شئت فعل فلان

(٦) دخل أبو العتاهية على المأمون فطعن على أهل البدع وجعل يخص القدرية باللعن ؛ فقال له المأمون : أنت صاحب شعر ولغة ، وللكلام قوم. قال: يا أمير المؤمنين ، لعمرى إن صناعتى لتلك ، ولكننى أسأل ثمامة عن مسألة فقل له يجيبنى . فقال له المأمون : لا ترد هذا فلست فى الكلام من طرزه . فقال : يتفضل على أمير المؤمنين بذلك ؟ فقال : يا ثمامة ، إذا سألك فأجبه . فأخرج أبو العتاهية يده من كمه ثم حركها وقال : يا ثمامة ، من حرك يدى ؟ قال : من أمه لحناء . فقال : شتمنى والله . فقال ثمامة : ناقض والله . فقال له المأمون : قد أجاب عن المسألة ، فإن كان عندك زيادة فزده . فانصرف أبو العتاهية

وإنما قال ثمامة : ناقض والله . لأن أبا العتاهية كان مجبراً وثمامة قدرى

(٧) قال ثمامة : خرجت من البصرة أريد المأمون ، فإذا مجنون مشدود حسن الوجه كأنه صحيح العقل ، فقال لى : ما اسمك ؟ قلت : ثمامة . قال : أمتكلم؟

قلت : نعم. قال : لم جلست على هذه الآجرة ولم يأذن لك أهلها ؟ قلت : رأيتها مبذولة فجلست عليها . قال: فلعل لأهلها فيها تدبيراً غير البذل ... ثم قال : هنا مسألة أسألك عنها . قلت : هات . قال : ألست القائل : إن العبد لا ينفك عن نعمة يجب الشكر عليها أو بلية يجب الصبر لديها ؟ فقلت : نعم . قال : لو أصبت بما يلزمك عيباً ويصمك بالعار ، أهذا نقمة أم نعمة ؟ قال ثمامة : فتحيرت ولم أدر ما أقول ؛ فقال : وهنا مسألة أخرى . فقلت : هات . قال لى : أخبرنى متى يجد صاحب النوم لذة النوم ؟ إن قلت قبل أن ينام ، أحلت ؛ لأنه يقظان ، وإن قلت فى حال النوم ، أبطلت ، لأنه لا يعقل شيئاً ، وإن قلت بعد قيامه ، فقد خرج عنه ، ولا يوجد الشيء بعد فقدانه ، قال ثمامة : فبهت ولم أستطع جواباً . فقال المجنون : مسألة أخرى . تزعم أن لكل أمة نذيراً ، فمن نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى الجواب. فقال : أما الجواب عن التقسيم فيجب أن تكون الأقسام ثلاثة : نعمة يجب الشكر عليها ، وبليتان : بلية يجب الصبر لديها ، وبلية يمكن التحرز عنها لكيلا ينضم العار إليها ، وأما الجواب عن النوم ، فمحال أن يدرك النائم لذة النوم ، وأما النذير ، فقد أخرج من كمه حجراً وقال : إذا عدا عليك كلب فهذا نذيره . ورمانى بالحجر فأخطأنى ، فلما رآه قد أخطأنى قال : فاتك النذير أيها الكلب الحقير ! فتركته وانصرفت : ولم أر مجنوناً بعده .

(٨) قال الجاحظ : قال ثمامة : دخلت إلى صديق لى أعوده ، وتركت حمارى على الباب ، ولم يكن معى غلام ، ثم خرجت فإذا فوقه صبى ، فقلت : لم ركبت حمارى بغير إذنى ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب إلى من بقائه . قال : فإن كان هذا رأيك فى الحمار فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لى واربح شكرى . فلم أدر ما أقول .

والمناظرتان الأخيرتان غلب فيهما ثمامة وانقطع عن الإجابة

مجونه :

من يتتبع مناقشات ثمامة ونوادره لا يسعه إلا أن يحكم عليه بأنه كان قليل الاكتراث ، لا يحافظ على سمت العلماء ووقارهم ، فلم يمنعه الحياء أن ينطق بالعوراء

أمام المأمون فى مناقشته أبا العتاهية ، ولم يستتر حين كان يرتكب ما يوجب استهجانه ونقده ، ولم يبال بالعامة فى شىء ؛ وله فى تحقيرهم وعدم الاعتداد بهم الكثير ؛ ولقد كان يحسبهم قطيعاً يساق بالعصا ويتبع كل ناعق ، وبلغ من استخفافه بهم أنه حرض المأمون أن يلعن معاوية ، ويكتب بذلك كتاب يقرأ على العامة فى يوم الدار ؛ وهم المأمون بذلك لولا أن أشار عليه يحيى بن أكثم فقال : « الرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، وألا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصح فى السياسة وأحرى فى التدبير ، فمال المأمون إلى رأى يحيى ، فقال ثمامة : وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالأنعام فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وحكى للمأمون مشهداً رآه فأضحكه ، وإنا لذاكرون بعض نوادره لنؤيد ما إليه قصدنا بهذا العنوان

(١) خرج من منزله بعد المغرب وهو سكران ، فإذا هو بالمأمون قد ساق إليه وحاذاه ، وقد ركب فى نفر ؛ فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه ، وبصر به المأمون فساق إليه وحاذاه أيضاً ، فوقف ثمامة ، فقال له المأمون : أنت ثمامة ؟ قال : إى والله . قال : سكران أنت ؟ قال : لا والله . قال : أو تعرفنى ؟ قال : إى والله . قال : فمن أنا ؟ قال : لا أدرى والله ! فضحك المأمون وانثنى عن دابته حتى كاد يقع

(٢) قال ثمامة : مررت بإبراهيم الموصلى ويزيد حوراء وهما مصطبحان وقد أخذا بينهما صوتاً يغنيانه ، هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وهو :

أيا جبلى نعمان بالله خليا سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

قال ثمامة : فو الله ما خلت أن شيئاً بقى من لذات الدنيا بعد ما كانا فيه أليس فى قوله استصواب للسكر وحث عليه واستنكار لبقاء لذات الدنيا بعد السكر والغناء ؟ وفى ذلك من الاستهتار والمجانة ما فيه .

(٣) ومن نوادره وأجوبته المسكتة معاً أن قالوا له حينما احترقت داره : « ما أسرع خلف الحريق ! » فقال : « فأنا أستحرق الله »

(٤) وما رواه الحسن بن رجاء أن سلاما الأبرش سجان هرون الرشيد جلس يقرأ عشية فى المصحف : « ويل يومئذ للمكذبين » فقال له ثمامة من السجن : إنما هى للمكذبين . وجعل يشرح له ويقول : المكذبون هم الرسل ، والمكذبون هم الكفار . فقال سلام : « قد قيل لى إنك زنديق ولم أقبل » ولما رضى الرشيد عن ثمامة وأطلقه سأل جلساءه عن أسوإ الناس حالا فقال : كل واحد شيئاً أما ثمامة فقال : « أسوأ الناس حالا عاقل يجرى عليه حكم جاهل » قال ثمامة : فتبينت الغضب فى وجه الرشيد، فقلت : يا أمير المؤمنين « ما أحسبنى وقعت بحيث أردت » قال : لا والله ، فاشرح . فحدثته بحديث سلام ، فجعل يضحك حتى استلقى وقال : صدقت ، والله لقد كنت أسوأ الناس حالا

أدبه

ليس تحت أيدينا ـ بحسب ما وسعنا البحث ـ من الأدلة الناطقة بعلو كعب ثمامة فى الأدب شيء يذكر ، فلم نقرأ له مقطوعات شعرية رائعة تشهد له بسمو الخيال أو البراعة فى الابتكار . ولم نقف له على رسائل دبجها قلمه وأساتها يراعته ، ولم نحفظ عنه خطبا رددتها المحافل وتناقلها الرواة ؛ ولكنا نقرأ شهادات من معاصريه تقربأنه كاتب بليغ وأديب ضليع ومناظر بارع ، وتصف ألفاظه ومعانيه بصفات البلاغة مجتمعة والفصاحة كاملة ، ولعل آثاره التى بنو احكمهم عليها اندثرت فيما اندثر من نتاج القرائح وثمرات الأفكار ؛ إما حقداً عليه لمنزلته من الخلفاء وتمكنه من تجريح المناظرين أمامهم ، وإما لأنها كانت تشتمل على مذاهب لا ترضاها العامة وقد نالت منه ما نالت فبادلته بالتحقير إخفاء لأثره وتضييعا لنتاجه ، وإما لأنها كانت تتضمن قوارص ومخازى تحز فى الخصوم وتعيب جلساءه ، ولم يصل إلينا إلا نتف من أخباره ونوادره . وطرف من مناقشاته ، وإنها مع قلتها لتبين لنا مقدار تأثر الأدب بعلم الكلام وتجلى قوته البلاغية ، والجاحظ ممن يقرون له بالأدب و يعترفون ببلاغته ؛ وحسبك بإقرار الجاحظ واعترافه شهادة

قال الجاحظ : يقول ثمامة : « كان جعفر بن يحيى البرمكى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض

ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة أيضا : « ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يتلمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه - أشد اقتداراً ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى » يقول الجاحظ بعد هذا القول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة فوصف بها جعفر بن يحيى كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه ؛ وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك » قال بعض الكتاب :

« معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه ، الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخريمى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة إذا القلوب ركب وقوف »

انتهت شهادة الجاحظ ، وهى تعترف فى صراحة ووضوح بأن منزلة ثمامة من البلاغة منزلة من تملكوا زمامها وتصرفوا فيها بما يعجب ويطرب .

ومما يدل على بلاغته وفصاحته النبذ التى نذكرها بعد :

(١) سأل المأمون يحيى بن أكثم وثمامة بن أشرس وعلى بن عبيدة الريحانى عن العشق ما هو ؟ فقال على بن عبيدة : العشق ارتياح فى الخلقة ، وفكرة تجول فى الروح ، وسرور منشؤه الخواطر ، له مستقر غامض ، ومحل لطيف المسالك ، يتصل بأجزاء القوى وينساب فى الحركات .

وقال يحيى : العشق سوانح تسنح للمرء تؤثرها النفس ويهيم بها القلب . قال ثمامة : يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب فى مسألة فى الطلاق أو عن محرم يصطاد ظبياً ، أما هذه فمسألتنا . فقال المأمون : ما العشق يا ثمامة ؟ قال :

إذا تقادحت جواهر النفوس بوصف الشاكلة ، أحدثت لمع برق ساطع تستضىء به نواظر العقول ، وتشرق له طبائع الحياة ، فيتولد من ذلك البرق نور

خاص بالنفس متصل ، بجوهريتها ، يسمى عشقا . وقيل : إنه قال : « العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ؛ ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها وقياد ملكها وقوى تصرفها ؛ توارى عن الأبصار مدخله ، وغمض فى القلوب مسلكه » فقال له المأمون : أحسنت يا ثمامة ؛ من يصف العشق يصفه مثلك ، فإنك طبيبه الحاذق . وأعطاه ألف دينار . وأنت ترى فى تعريفه الأول مذهبه من التولد والاتصال والامتزاج ، وتراه فى تعريفه الثانى يستقصى الصفات والآثار على طريقة المتكلمين والفلاسفة حين يصفون أو يشرحون .

(٢) روى الجاحظ عن ثمامة يصف تلاعب الجرذان وقتالها حين حبسه الرشيد فى بيت ضيق ملىء بأجحارها :

« لم أر قط أعجب من قتال : كنت فى الحبس وحدى ، وكان فى البيت الذى أنا فيه جحر فأر يقابله جحر آخر : فكان الجرذ يخرج من جحره فيرقص ويتوعد ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى إذا برز الآخر ، دخل فى جحره وصنع الآخر مثل ذلك ؛ فلا يزالان كذلك فى الوعيد وفى الفرار وفى التحاجز وفى ترك التلاقى ، إلا أنى فى كل مرة أظن الذى يظهر لى من جدهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان لشىء أهونه العض والخمش . ولا والله إن التقيا قط ؛ فعجبت من وعيد دائم لا إيقاع معه ، ومن فرار دائم لا ثبات معه ، ومن فرار لا يمنع العودة ، ومن إقدام لا يوجب الالتقاء . ليس هو إلا الصخب والتشبث . فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره ، وما زالا كذلك حتى أتى الله تعالى بالفرج وخلى سبيلى .

(٣) كتب ثمامة إلى الرشيد من الحبس :

عبد مقر ومولى شت نعمته ... بما تحدث عنه البدو والحضر
أوقرته نعما أتبعتها نقما ... طوارقا فبها فى الناس يشتهر
ولم تزل طاعتى بالغيب حاضرة ... ما شانها ساعة غش ولا غير

فإن عفوت فشيء كنت أعهده أو انتصرت فمن مولاك تنتصر

ولم نر له فيما وصلت إليه أيدينا من المصادر شعراً غير هذا ، ولم يحدثنا من كتب عنه أنه شاعر؛ وما قدمناه عن ثمامة لا يجعل صلته بالأدب وثيقة ذات بال. فترجمته فى علم الكلام أليق وأولى .

على السباعى

المصادر :

البيان والتبيين للجاحظ ، الحيوان له أيضا ، الأغانى ، أمالى المرتضى ، عيون التواريخ لابن شاكر المخطوط بدار الكتب ، تاريخ الخطيب البغدادى ، معجم الأدباء ، الفهرس لابن النديم وتكملته ، تاريخ الطبرى ، الانتصار لابن الخياط .